عروض موقعة ـــ

توجهات بريطانية – شرقية : مذكرات السير رونالد ستورس/ ترجمة رءوف عباس حامد .- القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٤ . ٦٧٣ ص ؛ ٢٤ سم .- (المشروع القومى للترجمة ؛ ٤٥٠)

توجهات بريطانية - شرقية
مذكرات السير رونالد ستورس

عرض

د. عبد المنعم الجميعي

أستاذ التاريخ الحديث المعاصر

نشر المسيو رونالد ستورس Ronald Storrs وهو من غلاة الاستعماريين الإنجليز كتابه Orintations في لندن عام ١٩٣٧ وأعيد طبعه في نيويورك في عام ١٩٧٣ تحت عنوان مذكرات السير رونالد ستورس.

وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أن صاحبه لم يكن فقط شاهد عيان للعديد من الأحداث التي حدثت في المشرق العربي في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين فحسب، بل لأنه لعب دورا مهما في توجيه صناعة القرار الخاصة بالسياسة البريطانية. فقد عمل ستورس سكرتيرا شرقيا بدار المعتمد البريطاني. فقد عمل البريطاني في القاهرة في الفترة من عام ١٩٠٨ إلى عام ١٩١٧ وتولى منصب الحاكم العسكري للقدس من عام ١٩١٧ إلى عام ١٩٢٠ ومنصب الحاكم العام للقدس من ١٩٢٠ إلى ١٩٢٦ ثم الحاكم العام لقبر من ١٩٢٦ إلى عام ١٩٣٢.

وهذا الكتاب يمثل مذكرات ستورس الشخصية عن فترة خدمته بمصر وفلسطين وقبرص.

أما عن المترجم الدكتور رءوف عباس فله باع طويل في ترجمة أمهات الكتب التاريخية التي كتبت بالإنجليزية، فقد ترجم روائع هذه الكتب. ولعل نظرة سريعة لما قام بترجمته تكشف فلسفته في الاختيار، فهو يتناول الكتب التي تطرح أسلوب الحوار خاصة في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي ومن هذه الكتب "يوميات هيروشيما" لها تشيا، و"دراسات في تطور الرأسمالية" لمورس دوب، و"مصر للمصريين" لألكسندر شولش، و"الهلال الخصيب تاريخ اقتصادي وثائقي" لشارل عيسوي، و"تجار القاهرة في العصر العثماني سيرة أبو طاقية شاهبندر التجار" لنيلي حنا، والفراعنة من؟ علم الآثار المتاحف والهوية القومية المصرية من حملة نابليون حتى الحرب الأولى" لدونالد ريد و"اللورد كرومر" لروجر أوين.

وقد أوضح الدكتور رءوف في مقدمته للكتاب أنه بالرغم من أهمية موضوعاته فإن أحدا لم يفكر في نقله إلى العربية، وقد أرجع ذلك لسببين وهما : ضخامة حجم الكتاب وصعوبة أسلوبه، ولأنه يمس ملوكا كانوا يتربعون على عروش العراق والسعودية والأردن، وقد ينال من يفكر في ترجمة هذا الكتاب سوءا من أحدهم على الأقل.

والكتاب الذي نعرض له يتكون من عشرين فصلا، بالإضافة إلى مقدمة للمترجم وتقديم وخاتمة للمؤلف، وهو في مجمله يلقى أضواء على السياسة البريطانية في المشرق العربي عامة، وفي مصر والجزيرة العربية والعراق وفلسطين خاصة، فتضمن مجموعة هامة من المعلومات السياسية التي تتصل بمصر في عهدى الاحتلال والحماية في تناولها للشئون المصرية، وفي صياغتها لنظام الحماية، كما تتضمن المذكرات عرضا تفصيليا لواقع المجتمع العراقي في أعقاب الاحتلال البريطاني، والجهود التي بذلتها بريطانيا من أجل تهويد فلسطين وتنفيذ وعد بلفور، هذا بالإضافة إلى ما احتوته من تفاصيل حول الثورة العرابية الكبرى أو ثورة الصحراء كما يسميها المؤلف، وبالإضافة إلى ذلك حفل الكتاب بالعديد من اللوحات القلمية. وقد حاول ستورس خلال كتابته لهذه المذكرات تسجيل مشاعره وملاحظاته الشخصية عن الأحداث.

والمذكرات تلقى بصفة عامة أضواء كاشفة على أخلاقيات المجتمع الرأسمالي، وقيم المجتمع الإنجليزي في عصر الصعود الاستعماري مثل الإحساس بتفوق بريطانيا، وحملها مشعل الحضارة الأوربية في إمبراطوريتها التي لا تغيب عنها الشمس، فمثلا يرى ستورس أن كرومر هو مؤسس مصر الحديثة، وأن الاحتلال البريطاني لمصر كان إنقاذا لها من التخلف والقهر، كما نظر ستورس إلى المصريين نظرة عنصرية حيث يصنفهم إلى مسلمين وأقباط.

وإلى جانب ذلك فتبرز في مذكراته أخلاقيات المجتمع الرأسمالي من حيث الوساطة في التعيين في الوظائف الحكومية الكبرى، فستورس مثلا لم يحصل على وظيفة في سكرتارية المالية في بداية الأمر إلا من خلال وساطة خاله "هنري كست" CUST الذي كان على صلة بكبار الموظفين الإنجليز بالمستعمرات، كما أنه لم يتم اختياره للعمل كسكرتير شرقي بدار المعتمد البريطاني إلا بعد أن حمل خطاب توصية من خاله إلى "الليدي كرومر".

وتكشف المذكرات عن أخلاقيات المجتمع الرأسمالي أيضا عندما ذكر ستورس أن والدته لم يكن لديها إحساس بالعدالة المطلقة بين الناس شأنها في ذلك شأن غيرها من نساء عصرها؛ فكانت ترى أن تعميم التعليم العام سوف يضع حدا للمبادرات الفردية وقد حاول ستورس أن يربط ذلك بالمثل العربي "لو أنا باشا وأنت باشا مين يسوق الحمير".

كما تكشف المذكرات عن أن إدارة المصالح الحكومية المصرية كانت حكرا على غير المصريين الفردية؛ فكانت إدارة البريد من نصيب الفرنسيين أما المالية فكانت من اختصاصات الخزانة البريطانية، وكان يعمل بها اليهود السفارديم القادمين من سالونيك والشوام. وإلى جانب ذلك فقد أوضحت هذه المذكرات دور وظيفة السكرتير الشرقي Oriental Secretary فلا يعد صاحبها من رجال السلك الدبلوماسي بل هو عبارة عن موظف إداري بالقنصلية، فقد كان دوره شبيها بعمل رجل المخابرات، فكان عين وأذن وأنف قنصلية بلاده، وعقلها المفكر، فهو يقوم بجمع المعلومات من خلال عملاء، ثم يقوم بتحليلها واستخلاص النتائج منها، وتقديمها إلى القنصل الذي يرفعها بدوره إلى الحكومة في لندن. وإلى جانب ذلك فقد كان السكرتير الشرقي يحتل مكانة مهمة في صنع السياسة البريطانية في مصر بحكم ما يقدمه من معلومات وتفسيره لها، وما يقترحه من سبل التعامل معها.

وقد تألق نجم ستورس بعد أن تولى منصب المعتمد البريطاني في مصر خلفا لجورست حيث أولاه ثقته التامة وتبنى مقترحاته.

وقبيل قيام الحرب العالمية الأولى لعب ستورس دروا مهما في المشاورات حول ضم مصر إلى الإمبراطورية البريطانية في حالة انضمام تركيا إلى ألمانيا، فعلى الرغم من أنه كان هناك فريق قوى في لندن يدعو إلى ضم مصر حتى أن دار المعتمد البريطاني في القاهرة قد أبلغت بقرار الضم في ١٣ نوفمبر ١٩١٤، فإنه نجح في إقناع المسئولين البريطانيين بالأخذ بفكرة الحماية والمحافظة على حكم أسرة محمد على، وبالوضع الدولى الذي سايرته السياسية المعلنة للوزارات البريطانية المتعاقبة بشأن مصر، يضاف إلى ذلك أنه نجح في إقناع الأمير حسين كامل - صديق الإنجليز باعتلاء العرش، وكان منحه لقب سلطان من اقتراحه، حيث كان من الصعب عليه أن يحمل أمير تابع لإنجلترا لقب ملك الذي يحمله سيده في بريطانيا، كما كان من غير اللائق منحه لقب صاحب السمو لارتباط ذلك اللقب بالخديوي السابق، ومن ثم كان منح السلطان حسين كامل لقب صاحب العظمة مناسبا لموقعه.

وبالنسبة لدور ستورس في إقامة صلات بين بريطانيا والعرب - خاصة الشريف حسين - خلال الحرب العالمية الأولى، فإليه يعود الفضل في تشجيع الشريف حسين على الثورة ضد الأتراك بهدف إجهاض محاولات الدولة العثمانية التي انضمت إلى ألمانيا، لذلك كانت المراسلات بين الشريف حسين والسير هنرى مكماهون تتم عن طريقه مما كان له تأثيره في صنع القرار البريطاني تجاه الحركة العربية.

ومن خلال المذكرات تتضح نظرة ستورس إلى الشريف حسين؛ فهو لم ينظر إليه كحليف، بل استنكر إقامة أمة عربية؛ حيث رأى أن بلاد العراق والشام تضم مجموعات مختلفة الأعراق

والمذاهب والديانات، وأن تحديد مصير هذه المناطق يجب أن يتم بواسطة الإنجليز وليس العرب.

وقد تعرض ستورس لتجربته كحاكم للقدس حتى قيام حكومة الانتداب في فلسطين ١٩٢٠م فقدم تفاصيل مهمة عن الأوضاع في القدس وفلسطين، وموقف العرب من الإدارة البريطانية ومن الصهيونية، وألاعيب الصهاينة ومحاولاتهم الإسراع في عملية تهويد فلسطين، والتي يتضح منها تعاطفه الشديد مع اليهود وتحيز بلاده الشديد تجاههم، وإغفالها لحقوق العرب. وكان من رأي ستورس أن الطريق المثلى لحل القضية هو تقسيم فلسطين بين اليهود والعرب.

وبالنسبة لتجربة ستورس في قبرص في الفترة من ١٩٢٦ إلى ١٩٣٢، فقد كان المجال جديدا عليه، ويختلف عن مصر وفلسطين تماما. فعلى الرغم من الإصلاحات التي حاول ستورس تنفيذها، فقد كانت ثورة عارمة بالجزيرة أحرقت فيها الأغلبية الساحقة للسكان مقار الحكومة البريطانية بما فيها منزل الحاكم العام في نيقوسيا مما ترتب عليه فرض الأحكام العرفية، وإلغاء المجلس التشريعي ومعاقبة الثوار، ونقله إلى روديسيا الشمالية. والجدير بالذكر أن النيران التي أحرقت منزل الحاكم العام في قبرص أتت على أوراق ستورس ومذكراته مما جعله يعتمد في كتابته لمذكراته على الرسائل التي كان يبعثها لوالديه.

هذا عن الجانب السياسي من مذكرات ستورس، أما عن الجوانب الأخرى فإنه لم ينس الحديث عن واقع المجتمع المصري خلال كتابته، لمذكراته، فتحدث عن القاهرة وكيف أصبحت خلال الثمانينيات والتسعينيات حيث كان أثرياؤها لا يتحدثون سوى بالفرنسية، كما تحدث عن براعة أهل الحرف والصنائع في مصر، وتطرق إلى دور الاتفاق الودى بين إنجلترا وفرنسا عام ١٩٤٠ في جعل مصر أشبه ما تكون بالمستعمرة التابعة للتاج البريطاني حيث تدهور النفوذ الأوربي وتزايد عدد الموظفين الإنجليز في الإدارات الحكومية المصرية. أما عن الإسكندرية فقد ذكر ستورس أن لغة الحديث فيها كانت إما إيطالية أو يونانية. وتطرق ستورس إلى انتشار عادة شرب الحشيش بين المصريين رغم الجهود التي بذلت لمكافحة تهريبه. كما تطرق إلى الآثار المصرية، والتنقيب عنها وحرص الأجانب على اقتنائها، وكيف كان هناك صراعا بين الفرنسيين والإنجليز حولها، وذكر أن معظم التحف الأثرية كانت تباع في المحلات الخاصة المنتشرة حول الفنادق، وكان ثمنها يتقاسمه الفلاح الذي عثر عليها مع السمسار والبائع.

وتعرض ستورس لأسواق خان الخليلي والحمزاوي حيث يباع البخور والعطور، كما تعرض لرغبة السياح في ركوب الحمير التي كانت تحمل لوحات معدنية عليها أرقام بالإنجليزية والعربية، وكان يعلق في رقبتها حجاب فضي يحمل عبارات قرآنية ومعه خرزة زرقاء تقى الحمار عين الحسود،

وكان المخصص للإيجار من تلك الحمير يتم العناية بها، فيقص شعرها وتخضب أطراف ذيولها بالحناء.

وإلى جانب ذلك فقد تطرق ستورس إلى الحيل التي كان يتبعها المسافرون للتهرب من ضريبة الجمارك، وإلى رغبة بعض المصريين في تقليد الأوروبيين في شرب النبيذ والبيرة بحجة أنهم من عشاق التحرر.

وحول عشاق التحرر تطرق ستورس إلى الأميرة نازلي فاضل تلك المرأة المتحررة صاحبه الصالون المشهور والمؤيدة للإنجليز بقوة، والذي لعب صالونها دورا مهم في الحياة الأدبية في مصر، وأنه ضم بين جنباته صفوة قادة الرأي والفكر الذين لعبوا أدوارا مهمة في تاريخ مصر الحديث، هذا إلى جانب أنه كان يضم كبار المسئولين الإنجليز أمثال كرومر وكبار رجالات الاحتلال في مصر.

وفي النهاية يمكن القول أن هذا الكتاب يعد مصدرا أساسيا لسياسة بريطانيا ومخططاتها في المشرق العربي في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين، وأن ترجمة الدكتور رءوف عباس له يعد إضافة مهمة للمكتبة العربية.